

قراءة سيميولوجية في تمزق البنية الذاتية داخل المجتمعات القطيعية (من خلال تحليل لوحة "الخروج عن القطيع" لتوماس ألان كوبيرا)

A Semiology reading of the rupture of the subjective structure within gregarious societies through an analysis of the painting "Deserter /Out from the herd" by Tomasz Alen Kopera

إيمان الصامت عروس^{1*}

فنانة تشكيلية وأستاذة مساعدة بالمعهد العالي للموسيقى والمسرح بالكاف-تونس

imen.samet@istmkf.u-jendouba.tn

تاريخ النشر: 2024/03/30

تاريخ القبول: 2024/02/09

تاريخ الإرسال: 2023/09/14

ملخص:

هذا البحث هو محاولة لتقديم قراءة سيميولوجية في الوعي الاجتماعي والايديولوجي وفي دور ثقافة القطيع وتأثيرها على صناعة الذات، حيث تنفي الذاتية الفردية على حساب المسار الذي يكرسه العقل الجمعي اجتماعيا وسياسيا ودينيا، لنبحث وسط سيرورات الوعي والهوية عن ذاتية الفرد وانسانيته التي لا تسعى للتجرد من أصولها بقدر ما تحاول تأكيد ذاتيتها وحريتها واستقلاليتها الفكرية والفنية والهوية. وقد قمنا بطرح هذه المسألة من خلال مقارنة تحليلية للوحة "الخروج عن القطيع" للرسام البولندي توماس كوبيرا والبحث في ألم هذا التمزق وانعكاساته على الفرد والمجموعة، ضمن توجه سريالي ميتافيزيقي يطرح واقعا ملموسا ومحسوسا، فهذا العمل هو دراسة لإنسانية الانسان وبحثه عن ذاتيته وهويته داخل المجتمعات القطيعية التي لا تسعى خلف الابداع والتميز بقدر ما تكرر النمطية، لنؤكد على أن تفرد الشخصية الذاتية هو في حد ذاته مدخل لفهم الثقافة.

الكلمات المفتاحية: سيميائية الألم والتمزق; الذاتية الفردية; العقل الجمعي; ثقافة القطيع; الخروج عن القطيع

ABSTRACT :

This article is an attempt to a semiological reading of social and ideological consciousness as well as the role of herd culture and its impact on self-construction, where individual subjectivity is denied in front of the collective social, political and religious spirit, let's discuss here of the subjectivity of the individual and of his humanity, which does not seek so much to strip himself of his origins as to affirm his subjectivity, his freedom and his independence and his intellectual and artistic identity. We have raised this question through an analytical approach to the painting "Out from the herd" by the Polish painter Tomasz Alen Kopera, which seeks to study The semiotics of pain and tearing and its repercussions on the individual and the group, in a metaphysical surrealist expression. which presents a tangible reality. This work presents a study of the humanity of human beings and their search for their identity within gregarious societies which do not seek creativity and excellence so much as the perpetuation of stereotypes, to confirm that the uniqueness of the subjective personality is in itself an introduction to the understanding of culture.

Keywords: The semiotics of pain and tearing; Individual subjectivity; Collective mind; herd culture; Out from the herd

1. مقدمة:

يرتبط تعيين الذات بإدراك الاختلافات الموجودة فيها، وبالتالي، وضع المفاهيم الجاهزة عن الهوية والمجتمع والانتماء في ساحة النقاش والمساءلة والكشف، لنطرح هنا صراع الهوية والانتساب، بين الأوهام الايديولوجية في الفكر الفردي والجماعي، وبين واقع السوسيولوجيا وفق ما هو منشود وما هو موجود تحت وطأة الرؤى الكولونيالية بمختلف مظاهرها والتي سلبت من الهويات فعاليتها وتركتها عاجزة عن تمثيل ذاتها. فإذا كان للفرد خصوصياته وأفكاره وبنيته الشخصية التي تجعله يحقق كيانه ويستشعر وجوده، ويتبنى لنفسه قناعات وتصورات ونظرة إلى العالم من حوله، فهذا لا يعني أنه قد امتلك كل ذلك منفردا وبمعزل عن المجموعة، فالفرد بطبعه كائن اجتماعي، وبهذا المعنى لا نستطيع أن ننفي أن الفعل الابداعي للذات الفردية هو نتاج تفاعلها الجماعي وتشاركها مع المجموعة. إلا أن الهوية في تحديداتها وانبثاق فرديتها تتطلب الحياد عن المجموعة والاختلاف في تصوراتها التي تتفرد بها لتفصح عن كينونتها الوجودية، وإلا فإننا سنجد أنفسنا أمام أزمة هوية وتصعد خطير في الانتماء يلغي ذاتية الفرد ويحوّله إلى كائن مستلب الإرادة والوعي والتفكير. وهذا ما سنحاول البحث فيه من خلال تقديم قراءة سيميولوجية لما يمكن استخلاصه من علامات بصرية وإحياءات شكلية قادرة على استيعاب ما تطرحه لوحة "الخروج عن القطيع" لتوماس ألان كوبرا Tomasz Alen Kopera من أبعاد تأويلية لما يوجد في الواقع من مظاهر وسلوكات إجتماعية تنفي الذات الفردية وتلغي وجودها.

لنتناول هذه العلاقة من خلال نقد ثقافة القطيع كمفهوم وجودي وكمقاربة سيميولوجية وكطرح سوسيولوجي، ودراسة مدى تأثيرها على الذات الفردية والجماعية. وهنا نحول الصراع الداخلي للذات المتمردة والمتمزقة إلى تساؤلات عن الهوية والانتماء تسعى للانزياح مكانيا وزمنيا وجسديا عن المنفى الاجتماعي الذي يلغي بواصر الهوية وخصوصية الكينونة الذاتية وسط المتشابهات الجماعية المجردة من الانتماء ويحول فعل التمزق عن القطيع إلى سلاح رمزي استراتيجي للتجاوز والتحرر نحو ملاذ ينجو بالذات من الضياع الوجودي.

2- ثقافة القطيع بين أوهام الايديولوجيا والانتساب السوسيولوجي

إن التمسك بالخصوصية الفردية النابعة من إحساس قوي بالهوية هو ما يخلق الفارق الايديولوجي في الانتماء والبحث عن الذات بين مجريات الوهم الفكري وبين التحفيز الواقعي نحو واقعية الفعل والممارسة و"واقعية الحياة العملية التي تكون فيها الممارسة المفهوم البديل عن الايديولوجيا"¹، فالنسق الانتمائي للأفكار والمعتقدات والاتجاهات هي التي تساعد على تفسير الأسس الاخلاقية للفعل الواقعي حيث تشخص الايديولوجيا "عمليات تشويهية اخفائية يعبر من خلالها الفرد أو الجماعة عن حالته دون أن يعلم ذلك أو يدركه.. وكأنها تعبر عن الحالة الطبقيّة للفرد دون وعي الفرد بها"²، لتصبح الايديولوجيا وسيلة للسيطرة الفكرية والاجتماعية ضمن مسارب الاوهام الواقعية التي تضع الفرد في مواقف فصامية بين خصوصيته الذاتية وانتسابه الاجتماعي و"تظهر بوصفها الوسيلة العامة التي يتم بواسطتها تضبيب عملية الحياة الواقعية"³ وتحويلها إلى وهم ايديولوجي جماعي منغلق على ذاته غير قابل للتغيير والتعديل والتطوير من منطلق أنه يعبر عن

الحقيقة المطلقة التي لا تقبل الاختلاف، لأن النظم الأيديولوجية تبنى على تفعيل مشروعية القوة التي تسيطر عليها الجماعات الاجتماعية، لتتحول هذه الأفكار إلى عقائد جامدة تساهم في تدمير فردية الذات الإنسانية.

وهنا يصبح البحث في حقيقة الواقع السوسيولوجي بمختلف مقارباته الأيديولوجية هو في حقيقة الأمر بحث في الهويات التي بدأت تتسرب تدريجيا نحو الاضمحلال والضياع تحت وطأة الانتساب اللاواعي للرؤى الكولونيالية بمختلف مظاهرها أو ما يسميه نيتشه ثقافة القطيع، وهي تسمية اعتمدها لوصف واقع التسلط الاجتماعي والاستلاب الفكري، بأسلوب تهكمي وساخر، فإذا كان رائد الوجودية الدنماركي سيرن كيركجور Søren Kierkegaard قد استخدم لفظ "الحشد" للتعبير عن مثل هذه المجتمعات، واعتمد عالم النفس الألماني كارل ياسبز Karl Jaspers تعبير "وجود-الجميع mass-existence أو الجمع mass، للدلالة على سيطرة الدهماء غير المفكرين على الحياة وعلى المعايير"⁴، فإن فريدريك نيتشه Friedrich Nietzsche قد تجاوز هذه المسميات نحو مقارنة حيوانية أقل مجاملة وأكثر نقدا وسخرية حيث أطلق على مثل هذه المجموعات تسمية القطيع ليسيطر من خلالها على حياة الجنس البشري، كنوع من التصنيف الاجتماعي للمجموعات التبعية التي تنفي الذات الفردية، من منطلق أن "ثقافة القطيع هو مصطلح يطلق على سلوك الأشخاص في الجماعة عندما يقومون بالتصرف بسلوك الجماعة التي ينتمون إليها من دون كثير من التفكير، أو التخطيط"⁵. وهنا تنتفي الذاتية الفردية على حساب المسار الذي يكرسه العقل الجمعي اجتماعيا وسياسيا ودينيا، "فأبرز ما يميز القطيع عند نيتشه هو الوسطية أو القدرات المتوسطة، فهو لا يستطيع أن يتحمل شيئا عظيما، أو شيئا استثنائيا، إنه يسطح كل شيء ويجعله مستويا ليصبح مألوف لا ضرر منه"⁶.

نفس المقاربة التغريبية طرحها مارتن هيدغير Martin Heidegger من خلال إطلاق تسمية "هم" التي يعني بها الناس بصفة عامة ودون تحديد أو تمييز حيث اختار مصطلح هم بعناية لأن هذه الكلمة شائعة على ألسنتنا، فكلمة هم تعني الآخرين، لكنهم آخرون غير محددين، وإن كانوا مع ذلك يسيطرون على حياتنا، فالهم التي اعتمدها هيدغير فيها تغييب وتغريب للفردية على حساب سيطرة هوية للمجموعة القطيعة التي تستبعد الاختيار وتزيل عبء المسؤولية عن الفرد، لتسطح كل شيء وتنزل به إلى مستوى الوسطية وتحديد معايير الذوق والأخلاق، لتصبح الهم هي المحدد للقطيع الجماعي المسلوب الهوية والمحدد لنمط كينونة اليومية، ويغدو تجمعهم جزءا من تجردهم وذوبانهم داخل العقل الجمعي للعالم الوجودي، "إنهم يلاقوننا انطلاقا من العالم، الذي ضمنه يقيد الدازين المنشغل المتبصر بالنظر إلى ماهيته"⁷ من منطلق أن العالم هو أيضا دازين جماعي، ليس بمعنى التفردات الهوية بقدر ما هو انصهار جمعي يلغي الذاتية ويذيب وجوديتها تحت سيطرة الأغلبية، "هنا حيث لا شيء يلفت النظر ولا شيء يثبت، يبسط الهم دكتاتوريته الحقيقية"⁸.

يطرح هيدغير نسبة الوجود في مراوحة بين الوجود الحقيقي للفرد بتمييزاته الذاتية وبصفاته ومواقفه وجوهره الروحي والوجودي، وبين الوجود الزائف الذي تتلاشى فيه السمات الجوهرية للفرد ويشكل ذاته وفقا لما تحدده المجموعة، متناسيا وجوده وهويته الفردية تحت وطأة الهوية الجماعية باعتبار أن "الوجود الزائف مع الآخرين يطمس الجوانب البشرية والشخصية الأصلية، وكلما كانت العلاقة مع الآخرين تنطوي على ضياع الجانب

الشخصي والإنساني، دلّ ذلك على أنها وجود زائف⁹، فالوجود الزائف مع الآخرين هو ما يفرض على الفرد نوعاً من التجانس الذي يتعلل بمبدأ المساواة ليطمس الاختلاف والتميز لصالح السطحية، فثقافة القطيع حسب نيتشه هي سياسة انتقائية تسعى إلى الإبقاء على نوع واحد من البشر.

3- سيميولوجية الطرح السيريالي في لوحة الخروج عن القطيع

بالرجوع إلى تحليل لوحة الرسام البولندي المعاصر توماس ألان كوبرا Tomasz Alen Kopera والتي تحمل عنوان "الهروب" أو كما تم ترجمتها "الخروج عن القطيع" (Deserter / Out from the herd)، وجدنا فيها ما يشكل مادة فنية وفكرية وفلسفية تطرح ظاهرة التغيرات البنيوية من منطلق التعامل مع مصطلح القطيع النيتشي كمقاربة سيميولوجية تقدم قراءة نقدية للوعي الاجتماعي والايديولوجي ولدور ثقافة القطيع وتأثيرها على صناعة الذات، في قالب فني يراوح بين الشاعرية والسخرية، حيث يصبح الناس وفق هذه اللوحة "قطيعاً من الغنم، ويفقدون القدرة على التفكير النقدي، ويشعرون بالعجز، ويصابون بالسلبية، ويتطلعون- بالضرورة -لظهور زعيم يدلهم على ما يفعلون، ويعرف ما لا يعرفون"¹⁰. وقد حاول الفنان توماس كوبرا من خلال هذه اللوحة الوصول إلى العقل الباطن للمشاهد ليتمكن من التأثير في انتباهه بصرياً وإدراكياً ويحفز فيه مدارك التفكير والتأمل بالرجوع إلى ظاهرة القطيع باعتبارها عملية مركبة تستخدم فيها كل وسائل السيطرة والتوجيه والتنميط.



توماس كوبرا، لوحة الهروب أو الخروج عن القطيع ألوان زيتية على قماش (91/71صم) 2004
(Deserter / Out from the herd) (Kopera, 2004)

تستعرض هذه اللوحة السريالية حشداً ممتداً من الناس لأجساد رمادية اللون بلا هوية ولا ملامح، لا نعرف بدايتها ولا نهايتها، تسير في تصلب وجمود، وكأنها ثابتة بلا حراك، على أرض صخرية جافة كأجسادهم المتصدعة

من الجفاف ومن الاستلاب والتبعية العمياء، فحين "يصبح فكر القطيع من الثوابت في حياة الإنسان، فإنه يُشير إلى ظاهرة نفسية يسعى خلالها للحصول على القبول والتوافق والانسجام داخل مجتمعه عن طريق تبني آرائه الجمعية، بعيداً عن أفكاره الشخصية وقناعاته وهويته الخاصة"¹¹.

وفي مقدمة الحشد يحاول فرد الخروج عن تبعية هذا القطيع والانفصال عنه، ليشكله الرسام بألوان دافئة تراوح بين الأصفر الترابي والبرتقالي، وهو أقرب إلى لون البشرة التي بدأت تدب فيها الحياة، وبدأت ملامح هويته في التجلي تدريجياً، إلا أننا نلاحظ صعوبة هذا الاقتلاع البارزة في صرخة الفرد وتألّمه، وكأن المجموعة تقاوم انفصاله وتجذبه إلى الخلف، إلى التبعية والانقياد مع الحشد.

وقد تناسب التوظيف السريالي مع فكرة العمل خاصة وأن السريالية هي في حد ذاتها انفتاح على المجهول وعلى الما وراء، تسعى إلى تحرير القوى اللاشعورية المكبوتة، حيث تعامل توماس كوبرا مع فكرة العمل بأسلوب السريالية السحرية التي تناولت مقاربات نقدية تمردية على الواقع باعتبار أن السريالية "لم تكن أبداً مذهبا بل موقفاً فكرياً"¹² يهدف إلى الجوهر الباطني للنظام الفكري، ليس في إطار التصنيف، الغربي أو العربي، وإنما في إطار إنساني، يتناول جوهر الهوية الإنسانية في بعدها الفردي والجمعي، ليبحث وسط سيرورات الوعي والهوية عن ذاتية الفرد وإنسانيته التي لا تسعى للتجرد من أصولها بقدر ما تحاول تأكيد ذاتيتها وحريةها واستقلاليتها الفكرية والفنية والهوية.

إن الانفعالات والحالات السيكولوجية التي انطلقت منها السريالية ركزت أساساً على اظهار الجانب الخفي من الحقيقة البصرية باعتبار أن الظاهر ما هو سوى جزء من الواقع، وجزء من الحقيقة ذاتها، حيث "بزغت السريالية كحركة تفاؤلية تعبر عن رغبة أفرادها.. في المضي إلى ما وراء الواقع الظاهري"¹³ واعتماد اللامرئي واللامعقول كمنطلقات أساسية لفهم الذات البشرية ونقد واقعها وانتمائها. فاهتمام السريالية بالمضمون لا ينفي تركيزها على هذا النوع التجديدي على مستوى الشكل كمنبع فني لاكتشافات تشكيلية رمزية منفتحة على اللامتناهي الدلالي وهو ما جعل أغلب أعمالها تتسم بالغموض والتعقيد والتشفير كمحفزات استكشافية تسعى "إلى استثارة وتنوير الفكر عبر طريقة جديدة في الفهم والتأويل، محملة بمضامين فكرية وانفعالية تستفز فكر وإحساس الجمهور.

فالتصلب والجفاف الصخري الذي سيطر على نسج المجتمع في الصورة يعكس تناقضاً في العلاقة الطبيعية التي يطرحها السرياليون ذاتهم، وهي علاقة سيميائية تلغي طبيعة المادة لتحيل إلى رمزيته، فالتصلب والجمود الذي تعرضه اللوحة يتجاوز الحجر المادي نحو الجمود الفكري، "إذ ليس الحجر الفلسفي شيئاً آخر إلا ما يتيح لخيال الإنسان أن يثار بقوة من الأشياء كلها، بعد قرون من تدجين الفكر والخضوع المجنون"¹⁴. فهذا التصلب الصخري الذي سيطر على أجساد المجتمع حولها إلى جثث مجمدة بلا ملامح كمقاربة استعارية للجمود الفكري والإبداع الذي توقف عن النمو.

حاول توماس كوبرا من خلال هذا التوجه السريالي الانطلاق من أشياء واقعية، هي أجساد جماعية استخدمت الجسد المفرد للارتقاء بالحلم والأمل إلى ما فوق الواقع المرئي حيث "عبّرت اليوتوبيات الاجتماعية طوال

تاريخها عن أمل البشرية في حياة أفضل، ورسمت صورا لمجتمعات خيالية مثالية¹⁵، كسبيل للبحث عن طريق يطرح معادلة غير متكافئة بين التبعية والخلاص، بين التفكير والتطبيع.. ضمن نظام تركيبي يجمع بين الروح المتأججة والمادة المتصلبة كإحالة الى العلاقة بين الفرد والمجتمع، من منطلق مركزية الفرد كنقطة عليا تختصر الواقع وتهيمن على بنائته العلائقية، لتطلق العنان للفكر الحر ليشع وينطلق في اتجاه البعد الماورائي للحياة المرئية والخفية لتجديد حياة الفرد والمجتمع والانتصار على الواقع والتحكم في المستقبل، لتنبثق من رحم السريالية "حاجة ليس إلى تدمير مظاهر الواقع القديمة فحسب بل أيضا إلى خلق واقع جديد"¹⁶ ذو طابع تجديدي جذري يغير المفهوم الفني للواقع ويدخل ديناميكيات حياتية جديدة في عملية الخلق والتفكير.

4- حالة الجمود وسط نمطية المجتمع القطيعي

تتضمن لوحة الخروج عن القطيع مقارنة وجودية للواقع تطرح نموذجا جدليا للإنسانية الإنسان وبحثه عن ذاتيته وهويته داخل المجتمعات القطيعية، لتعكس حاجتنا إلى دراسة هذه الخصائص الوجودية " بوصفها صرخة لإنقاذ الفرد من الطغيان والسيطرة: طغيان الجماعة، وسيطرة السلطة أو التقليد الأعمى"¹⁷، ودعوة للتميز الفردي وتجاوز كونه مجرد فرد في قطع، تقوده السلبية وتسيطر عليه التبعية، فلا يبحث عن الابداع والتميز بقدر ما يكرس الجمود والنمطية التي "تحرم الفرد من ذاته الحقيقية وتجعله خاضعا تماما لسيطرة الآخرين، ومع ذلك فإنه هو نفسه يساهم، بطريقة تنطوي على مفارقة، في ضمان هذه السيطرة لقوة «هم» غير الشخصية"¹⁸ التي لا تسمح للفرد بأن يوجد إلا كجزء من كل وفق البناء الغريزي لمنظومة القطيع.

يمكن مقارنة هذا الجمود التعبيري الذي يسيطر على اللوحة بغياب المعرفة والفهم لتفقد التفاعلات الجماعية المعنى والقيمة على اعتبار أن كل نشاط في الفضاء العام صار أقرب إلى اللعبة، وأفراد اللعبة هم أقرب إلى ما تتطلبه الطبيعة اليومية للحياة من التبسيط ونبد المجهود والقبول بكل ما هو كاف للحدود الدنيا على حد تعبير آلان دونو Alain Deneault في كتابه نظام التفاهة الذي ينتقد فيه سيطرة فكرة التفاهة على كل شيء وبطريقة سلسلة وسهلة حيث اعتمد مصطلح نظام التفاهة الذي "يؤسس لوسط لا يعود فيه المعتاد هو محض توليف مجرد يسمح لنا بالوقوف على كنه الأمر، بل يصبح هو المعيار الذي نضطر للخضوع له"¹⁹ والانصياع لتبعيته، ليغلب التبسيط على التفكير، وتطفو السطحية على العمق الدلالي والوجودي والرمزي وهنا، وعلى خلاف ما تداولته النظم الايديولوجية، فإن "السلبية تصبح قيمة"²⁰ تكرر منهجة التفاهة والتسطيح الفكري الذي يغيب الوعي العام في ظل سيطرة النمط الاستهلاكي السلبي على النمط الانتاجي الايجابي. وهو ما طرحه جيل دولوز Gilles Deleuze " في سياق منظومة لا قيمية ولا عقلانية تتعاطى مع العالم المادي، فما بعد الحداثة هي القبول الكامل للعرضي والمتشظي والمتقطع والفوضوي"²¹ ضمن واقع يلغي استقلالية الفرد وقدرته على التعمق الفكري والتضمين الدلالي لينتفي كذات مختلفة ويحضر كهو مشابهة للموجود، حيث تحاول مثل هذه المجتمعات "أن تسلب الاختلاف قوته بأن تختزله دائما في مفهوم أعم... لأنه المفهوم الذي يجر معه الكاوس والفراغ من العمق نحو السطح، والحال أن الفكر يخاف الكاوس، لأنه يهدد سكون الهويات وتماسك الوحدات"²².

إن مجرد ذكر كلمة اختلاف يمكن أن يؤدي إلى حالة من الصراع والقلق في المجتمعات التي تحبذ السيطرة من خلال التسطيط ورفض الاجتهاد، فهذه "الجماعات بوصفها أشياء كلية، عاجزة عن ايضاح الذات كما هي عاجزة عن التفكير"²³، لتحول التفاهة والعدمية إلى معايير أساسية لبناء الكيان الاجتماعي لعدديي الحكمة "فمثلهم مثل النهر يمضي فوقه قارب، وفوق القارب تجلس الاحكام القيمية مهيبة ومقنعة"²⁴ وهو ما يسميه نيتشه نهر الصيرورة التي تفرض الحتمية والتطبيع والتبعية على كل ما يحيط بها.

إن الشعور بالنفي والوعي بالاغتراب وبعدم الانتماء وسط المجموعة في المكان والزمان هو ما يحفز الوعي الفردي على التمرد على اللاوعي الجماعي، و"ما البحث عن هناك آخر سوى عسر تلاؤم مع اللحظة"²⁵ فالفرد هنا يفقد فاعليته وأهميته وسط مجموعة مهمشة بلا ألوان ولا هوية ولا أحاسيس، كيانات مهمة لأجساد بلا أعضاء ولا ملامح، لتنفجر من رحمها روح متمردة بدأت ملامحها في التشكل والتعبير عن رفضها وكأنها تقول "لست من هذا العالم، كنت ذات يوم، أنا في وضع الغريب الدائم، في حالة لا انتماء كلي حيال أي شيء."²⁶

توصلنا مثل هذه الوضعيات المهمة إلى عجز المنطق التقليدي عن التعامل مع معطيات الواقع وتقبل جموده لتضعنا أمام منطق جديد هو المنطق الغائم بوصفه نظرية الأشياء ذات الملامح المهمة وغير المحددة بما هو انعكاس لشخص هذا الواقع التي تنتسب إلى الفئات الغائمة كنظرية تدعو إلى التعامل مع الغموض والابهام وعدم الدقة في إدراك الانسان لواقعه وفي أساليب تعبيره المختلفة عن هذا الإدراك. مثل هذه النمطية والتطبيع السليبي يقتل الانسان تدريجيا فيموت رمزيا عبر انحاء هويته وضياح كيانه وسط ازدحام بلا معنى، وهنا يصبح الاستمرار في العيش هو في حد ذاته "فعل احتجاج ضد الحقيقة"²⁷.

إن نزوع الفرد إلى الانصياع وراء نمطية المجتمع القطيعة حوّل القوى المسيطرة على المجموعة إلى "نظام مكين يضرب بجذوره في تربة المجتمع شيئا فشيئا، بشيء من المنهجية والاستقرار المرعبين"²⁸، لتصبح التفاهة والسلبية واللامعيارية أنظمة مطلوبة "هكذا تسفر لنا الحياة عن منطقها الذي يتقبل عن طيب خاطر عدم الدقة والغموض واللاتيقن والابهام ويتعامل معها بكفاءة بالغة"²⁹ تقصي التميز الفردي وسط الازدحام الجماعي، وهو ما يسميه نيتشه الفوضى الكونية التي تتطلب ترسيخ الوجود كعلاقة³⁰، باعتبار أن التعدد من وجهة نظر فلسفة الاختلاف عنده يمنع التفرد، "إنهم الأسياد الذين لا يعترفون بقيمة تعددية الآراء، ولا يعرفون أن قمعها وتجاهل الفكر الإبداعي بداخلها يؤدي إلى ضعف عملية صنع القرار"³¹.

إن استقلالية الفرد هي المنبع الأساسي لاتخاذ القرارات، "فالافراد المستقلين هم الذين يقومون من داخل ذواتهم بالمبادرة إلى الفعل وإلى المعرفة"³²، سواء بصفة فردية أو جماعية، لأن المصلحة عامة وجامعة لكنها مرتبطة أيضا بمدى اكتساب الفرد للوعي، فكل إنسان يكتسب عقلا يفكر به، ويبنى اختياراته وقراراته وفق قناعاته الخاصة، ليصبح استلاب الفكر وإعدام العقل قضاء على القدرات الفردية وسط المجموعة. فأن تفعل ما يفعله الآخرون، لمجرد أنهم يفعلونه، يعني أنك تحولت فعلا إلى القطيع، تسير في مساره، وتؤدي أدواره، التي رسمت لك منذ أن انضممت إليه، ومن دون أن تفكر بالتمرد عليه³³.

تحيلنا هذه اللوحة على مشكلة الانسان الحديث والمعاصر " هذا الكائن المشوه الذي لم يعد يستطيع ان يكون لا سيدا ولا عبدا" ³⁴ باعتبار أن عدم انسجام الفرد وجوديا ومعرفيا مع حقيقة وجوده يصعب انتماءه وتحديد هويته الاجتماعية. وهنا "لا يكون الشخص سيدا أو عبدا بالمعنى الاجتماعي أو السياسي السائد، بل في معنى إرادة السيادة على معنى الحياة التي يريد أن يخلقها وإرادة العبودية لمعنى مقرر ومفروض على الحياة" ³⁵. فالمقاربة الفلسفية لهذا الطرح ليست مجرد رؤية ميتافيزيقية للمصير الإنساني المحتوم وتفسير لتداول الانتماء بين السيادة والعبودية بالاستناد إلى نظرة معينة للعالم وفكرة محددة عن الإنسان، خاصة وأن العبد هنا هو سيد لروحه والسيد هو عبد لواقعه، بل هي محاولة تجديد ثورية لمنظومة الفوضى الاجتماعية التي تدمر المكانة الفردية كصيرورة تاريخية للأمال الوجودية التي انطلقت مع مطلع الحداثة والتي لا نزال نتأثر بها في سيرنا نحو بناء كيان وجودي للانسان المعاصر.

5- تأويلية التشظي بين الهوية الجماعية والهوية الفردية

عندما نتحدث عن الهوية الجماعية فان ذلك لا يعني بالضرورة حضورا سلبيا مسيطرا بل هو انتماء اجتماعي اتفاقي يقوم على الاختلاف والتجانس وفق ذهنية جماعية قائمة على التشاركية ... "فالذهنية تنطوي في ذاتها على رؤية خاصة للعالم وعلى طريقة للتعامل مع الأشياء وعلى مواقف خاصة بعناصر الوسط الذي يحيط به الانسان" ³⁶ حيث أن بناء شخصية الفرد وهويته لا يكون في معزل عن انتماؤه وعلاقاته التفاعلية ومكانته الاجتماعية، فالفرد هو بدوره كائن اجتماعي لا يحيا إلا وسط مجموعات، وتأكيد هويته الفردية مرتبط بشكل كبير بمدى شعوره بالانتماء والتجانس، وهنا تلتقي السيكلوجيا الاجتماعية مع التاريخ الثقافي الذي يحدد هوية وذهنية المجموعة ودورها في بناء التصورات والمفاهيم المشتركة، ليتدخل "النظام المرجعي للذهنية على نحو دائم كشبكة لتحليل رمزية العالم" ³⁷، وكنظام من المعلومات التي تؤدي دورا تفسيريا وتأويليا لمختلف العلاقات والتفاعلات الموجودة بين الأفراد.

إن الشعور بالهوية الجمعية ينطلق أساسا من عوامل نفسية ترتبط بالذاكرة الانفعالية المشتركة التي تجسد الانتماء الجماعي في ذلك الشعور المتبادل بروح التضامن الاجتماعي، وهنا في هذه اللوحة نجد الكثير من البرود تجاه المشاعر الفردية حيث "تنشأ أزمات الهوية عندما يصبح التوتر الذي تثيره هذه التناقضات على أشده، وعندما تؤدي إلى شلل في طاقة الفعل، وإلى وجود قلق دائم" ³⁸ يلغي الشعور بتقدير الذات وبالأمن الوجودي وسط المجموعة، لنطرح هنا نوعا من التصدع الثقافي والوجودي المرتبط بغياب الجذور المشتركة بين الأفراد، وهو ما يؤثر سلبا على التفاعل الفردي وعلى مواقفه الانفعالية، لندعو من خلال مراجعة هيكل البناء الاجتماعي إلى نوع من التحديث العلائقي، "فالتحديث الحقيقي ينبغي أن يركز على كيفية تحديث هذه الجذور وهذا التراث، حتى لا ينطلق المجتمع بلا هوية، ومن ثمة يسقط في إطار التبعية" ³⁹.

ورغم أننا عادة نثمن اللاوعي الجمعي بما هو نتاج ذاكرة الانسانية النفسية لاحتوائه على رموز وثقافات مشتركة بين المجموعات إلا أنه يتحول في سياسة القطيع إلى تجرد من الهوية وتطبيع نمطي " إلى أن يصاب الجسد الاجتماعي بالفساد بصورة بنيوية" ⁴⁰، فهذه الأفكار والانفعالات والرغبات تستفيد من ثغرات اللاوعي الجمعي

وتحوّله إلى مادة خصبة تهل من الذاتية الفردية وتجمد كيائها وانتماءها فيصبح "عدم الوعي وطن، والوعي منفى"⁴¹.

اتسمت اركيولوجيا التشكيل الاجتماعي في هذه اللوحة باللاتحديد الهوي الذي يضع الأفراد ضمن متشابهات متجردة من الهوية ومن الجسد، "تلغي الانسان.. تمنع كثرته وتعدده واختلافاته، لصالح هيمنة الرؤية الوحيدة لماهية لامتناهية واحدة للإنسان"⁴² اللانساني الذي لم يستبقي من إنسانيته سوى كتل جامدة متشابهة، ضمن تسلسل لامتناهي في المكان والزمان، "وبقوة هذا التلاؤم الذي يجاور المتشابه ويمائل المتقاربات، يشكل العالم سلسلة مع نفسه، وفي كل نقطة اتصال تبدأ وتنتهي حلقة تشبه الحلقة السابقة وتشبه الحلقة اللاحقة، ومن دورة إلى أخرى تتابع المتشابهات تاركة الطرفين في تباعدهما"⁴³ الوجودي المطلق نحو اللامتناهي الغير محدد والمادي المعين نحو اللامتشكل واللامكتمل جسدا وكيانا، لتصبح عملية الاقتلاع نوعا من الثورة اركيولوجية على المصير الانساني الذي بات محكوما بالتبعية اللامتناهية الأصل والامتداد، وهنا "ينبغي أن تفهم ثورة اركيولوجيا من حيث أنها عندما تعلن عن زوال الانسان أو قرب زواله، إنما تقصد تلك القطيعة المنتظرة التي ستحل في نظام الانظمة المعرفية الذي اعتادت العلوم الانسانية أن تجعله كبطانة تغلف به منهجياتها"⁴⁴ وتخفي بها أزمت الهوية الجماعية والفردية.

إن التعامل مع أزمة الهوية الاجتماعية هو بالأساس بحث في أزمة الهوية الفردية ذاتها باعتبار أن المعرفة والخبرة هي ظواهر فردية يبني تكاملها وتضافرها وحدة وكيان المجموعة سواء من خلال التكامل المعرفي أو التعاطف الوجودي الذي "سوف يكون على تأويليته الخاصة أن تكشف لنا كيف أن إمكانات الكينونة المختلفة للدازين من شأنها أن تضلل عن الكينونة.. بحيث أن فهما صميما قد كبت وإن الداين قد أخذ يبحث عن ملجأ في بدائله"⁴⁵، فإما أن يكون مفصلا على قياس المجموعة فيندرج ضمن الهم الجماعية أو أن يكون هو ذاته بتفرده واختلافه فينعزل مع الأنا الفردية.

تطرح هذه الفردية مقارنة أخرى للذات المنعزلة والمنطوية التي تقصي الآخر وترفضه، وهو ما يعيدنا إلى إشكاليات وآليات الدمج والتفاعل الجماعي حيث "أن خرافة الفرد المعزول المكتفي بذاته هي الأساس في أشكال عديدة للاستيمولوجيا الفردية والسيكولوجيا النشأوية. لقد كانت الاستيمولوجيا تتعامل مع هذا الفرد المعزول المكتفي بذاته وكأنه يمتلك في جوهره ومنذ البداية كل القدرات التي تتميز بها الكائنات الانسانية، بما في ذلك المعرفة المحضة"⁴⁶، كجزء من البنى التصورية للفكر الانساني والمقاربات المعرفية في مراوحة بين الثقافة التي تنتج الفرد والفرد الذي ينتج الثقافة. خاصة و"ان الفكر الانساني لا يقوم بتأثير دافع تأملي، بل هو يتطلب تيارا تحتيا إراديا وانفعاليا ولا شعوريا لكي يضمن استمرار التوجه الى المعرفة في حياة الجماعة"⁴⁷، فهذه العلاقة التكاملية في إنشاء الكيان الاجتماعي هي أساس التميز الفردي والتفاعل الجماعي حيث أنه "لا يوجد عالم في ذاته إنه أساسا عالم علاقة"⁴⁸. ليصبح غياب التفاعل وغياب التميز جزءا أساسيا من فشل الانساق الادراكية داخل المنظومة الاجتماعية في ظل غياب البعد التعاوني الجوهرى الذي يبني انسانية الإنسان في مقاربتة الفكرية والعاطفية كأسس وجودية تكشف لنا الترابطات السببية بين الأفراد، وهنا "ينبغي البحث عن

تفسير لذلك الفشل في كون الرابطة الاجتماعية الاصلية لم تحظ قط بالتحليل والفهم⁴⁹، ليصبح التشخيص الوصفي السوسولوجي لهذه اللوحة هو جزء من دراسة الوضعية تحت إطار تحليلي وكأننا هنا أمام "مشكلة هامشية في الفكر والوجود تتضح بواسطة حالة فردية عرضية"⁵⁰ تعبر في رغبتها في الانفصال والتمزق عن المجموعة.

6- سيميولوجيا الألم والتمزق

إن السعي للخروج عن هذه النمطية وتجاوز الإبداعية يصبح حسب هذه اللوحة منطلقات فردية، هي الذات المتمردة على كيانها ووجودها السلبي، ليحقق الفرد تميزه واختلافه ورغبته الدفينة في أن يكون ذاتا مبدعة من خلال التفرد والإشباع الذاتي كنوع من الرضى الموضوعي بما ينتجه وكفرصة للتحرر الجزئي من القيود الاجتماعية التي تفرض سيطرتها على الفرد، حيث أن وجود القوة "محدد انطلاقا من الغيرية، وانطلاقا من الاختلاف عن مقدار الآخر"⁵¹ في الفعل والتفكير، لتصبح الرغبة في الانفصال عن المجموعة هي جزء من هذه الغيرية التي نقلتها لنا صورة فنية تفعل القيمة الإبداعية للفرد وسط المجموعة، فمثلا أن الفن هو أداة مواجهة لأزمات الواقع وفوضويته اللابئة، تصبح قراءة اللوحة الفنية جزاء من هذا التوجه الذي ينتقد ويوجه باعتبار أن "الفن الصادق اليوم شريك النشاط الاجتماعي الثوري، إنه يسعى مثله إلى البلبلة وتدمير المجتمع الرأسمالي"⁵².

إن ما يميز لوحة الخروج عن القطيع سيميولوجيا هي هذه الذات المتجردة من المجموعة، حالة التمزق والاقتلاع التي يحاول من خلالها الفرد أن يبني اختلافه وتفرد، حيث "تجاذب الانسان قوتان تمزقانه، عقل شامخ دائما حتى في احتضاره من جهة، وعالم مجهول يشعر بأنه المحرك الحقيقي لجميع أعماله وأفكاره وحياته"⁵³، ليصبح الاقتلاع جزء من العمليات الدفاعية التي يقوم بها الفرد وسط "الأكراه السيكولوجي كإحدى العمليات القسرية التي تدفع أفراد الجماعة إلى اكتساب هوية سلبية"⁵⁴.

يمكن النظر إلى مثل هذه الآثار النفسية التي تتركها المعيشة الاجتماعية للتفسيخ الفردي كنوع من النماذج المرجعية التي تعكس واقع الأزمة النفسية لمشكلات التطبيع الاجتماعي والسيطرة الجماعية السلبية على الفرد، هي نوع من التصورات الوهمية لفعل الهيمنة السيكولوجية من المجموعة في اتجاه الفرد، أو هي عكسيا فعل التبعية اللاواعية من الفرد تجاه المجموعة، وهي علاقة استقطابية تفعلها درجات الوعي المعرفي الفردي التي تبني المستوى العام للنظام الثقافي والاجتماعي وتعطيه شرعية السيطرة والهيمنة والاستلاب والتطبيع القهري من خلال ممارسة أنواع مختلفة من الضغط والإكراه، وهنا "تعاني الهوية من حالة استلاب حقيقية وذلك عندما تتعرض إلى تأثير نظام من العمليات الخارجية التي تعمل على أحداث تغيرات عميقة في جوهرها"⁵⁵ حيث تؤدي عملية التطبيع القهري إلى ولادة هوية متشظية و متمزقة بين انتمائها وإرادتها، ليتحول المجتمع بعباداته وأفعاله وايدولوجياته المتملكة لهوية الفرد من داعم له كمؤسس للمجموعة ويحقق كيانها إلى مهدد لفرديته، "لهذا يصعب على الناس فهم المقصود بأسلوب الكينونة، أو إدراك أن التملك ليس إلا توجهها حياتيا واحدا من بين توجهات محتملة"⁵⁶.

إن التعسف الانتمائي للفرد وخاصة في حالات تجلي وانبثاق الوعي الذي تحاول المجموعة طمسه ومحوه، يولد رغبة ملحة في الانفصال. "وفي هذا السياق يدرك الفرد الذي يعيش داخل هذه الثقافة الممزقة، الاشكالية الثقافية ومضاعفاتها النفسية، وبالتالي فإن الاكراه الملح الذي يدفع الفرد إلى تحقيق خيارات مستحيلة يحثي في الفرد إحساس الاستلاب"⁵⁷ والرغبة في الانسلاخ حيث "يبين التحليل الخاص بمسألة ردود الأفعال تجاه تهديدات الهوية وجود ثلاثة فئات رئيسية من السلوك: الهروب والمهاجمة والسلبية"⁵⁸، ليتجلى الهروب هنا في شكل اندفاع نحو الفراغ الوجودي أو هي "اللحظة الممتلئة، وفيه تتبع للحظة التي يتحد فيها الذات والموضوع والوجود والماهية ويتحقق فيها الوجود الأسمى غير المغترب"⁵⁹ الذي يحاول فيه الفرد التجرد من السيطرة الفكرية نحو وجوده الكينوني باعتبار أن انسلاخ كينونة الفرد يصبح أقوى من الأفكار المهيمنة عليه، وهنا يعطينا ميشال فوكو Michel Foucault مثلاً في "محاولة تحقيقه لمجازفة خروج العقل نفسه من تحت سلطان انتاجاته وإعادة رؤيته للماحداث الفكري بعين الماحداث الكينوني"⁶⁰، ليخرج الفرد عن جسديته المادية ويرى ذاته في تشكيلها منفصلاً عنها، كنوع من التهديم للوحدة الأساسية للوجود ضد وجهة النظر العقلانية التي تؤمن بالوحدة وتلغي التعدد على حساب الواحد ليقارب الانسلاخ عن المجموعة معنى تفجير الواحد في فلسفة نيتشه

إن الانتماء المفروض داخل المجموعة هو نوع من الوجود الحتمي الذي يسيطر على العلاقات الجماعية وعلى تشكل كيان الفرد، إلا أن مثل هذه التجاوزات المنفلتة نحو الانسلاخ والتمزق هي في حد ذاتها مجازفة انطلاق وتحدي نحو المجهول، لكنه مجهول يبني احتمالات أوسع وأشمل من المصير المحدد الذي تفرضه التبعية العمياء مع المجموعة "إنها تحاول أن تدل على العلاقة بين "الموجود" الكائن بالفعل وبين "الممكن" الذي يسعى إليه هذا الموجود، أو بعبارة أوضح أنها تشير إلى "النزوع" الكامن فيه نحو الوجود الذي لم يتحقق بعد، أو الوجود الذي ما يزال في طريقه إلى التحقق"⁶¹، ليصبح الأمل والحلم هو المسار نحو المعرفة الذي يحاول الفرد أن يسلكه حتى وإن كان طريقه ضبابياً، حيث "لا يمكن أن يزدهر العقل بغير الأمل، ولا يمكن أن يتكلم الأمل بغير العقل، لأن وحدتهما وحدة ضرورية"⁶²، وهي التي تؤكد العلاقة بين إرادة القوة للجذب إلى الوراء وإرادة المعرفة للانطلاق إلى الأمام، باعتبار "أن الصورة الأكثر عمومية لإرادة القوة هي الفعل ضد قوى ومقاومة هذه القوى لها"⁶³ وذلك من خلال طرح إرادة القوة كعلاقة ببنية تفعل السيطرة وتفرض الأفضلية سواء بطريقة سلبية أو إيجابية، أي قوة القطيع التي تسحب إلى الوراء وإلى التبعية، أو قوة الإرادة الذاتية نحو التجرد من هذه السلطة. "فالعلاقة الاستقطابية الاستتباعية بين المعرفة والقوة كانت تمنع انبثاق القوة القوية التي يمكن أن تنشأ عندما يتم هذا النموذج من العلاقة، لتولد على أنقاضه العلاقة التمهضية التضافرية، التي تسمح للمعرفة والقوة معا أن تبرح كل منهما موقع الأقوى وحده بدون الآخر، بإزالة الآخر واستخدامه"⁶⁴.

تحدث عملية الاقتلاع القسري والتمزق الانفصالي نوعاً من الألم الذي يتجاوز الألم المادي الجسدي نحو ألم نفسي وجودي، استحضرت هذه اللوحة من خلال تعابير الوجه وتمزقات الجسد والصدى الافتراضي للصرخة التي تدوي في الفراغ اللامتناهي الممتد في كل اتجاهات فضاء اللوحة، فالإنسان بوصفه كائناً متناهيًا، لا يمكن له إدراك جوهره، إلا في علاقته بهذا اللامتناهي، حينها يكون الانفصال والتمزق بهذا المعنى أمراً ضرورياً، لأنّه

وحده، يجعل الإنسان، بشكل واعٍ، يحقق ذاته، ويستعيد كينونته، ضمن "هذا المتناهي عينه الذي يدعونا إلى ملاقاته كل كائن في حدود فردانيته الخاصة"⁶⁵، لتضعنا راهنية اللحظة التعبيرية للوحة أمام صرخة جسدية تمهد "لانبثاق عهد الحداثة البعدية، حيث التحديث لم يعد يكتفي بتغيير صورة العالم وحيزاته المختلفة، بل غدا الانسان موضوعا هو ذاته للتحديث"⁶⁶، بحثا عن الإنسان النيتشي المتفوق الذي يسعى لتحطيم أصنام العقل والهروب من أزمة الهوية المندفنة وسط سياسة القطيع، معبرا بعينين تصرخان مثبتين في الأفق البعيد وروح تقاوم حلمها لبلوغ هذا الأفق وهذا الأمل في أن يصبح إنسانا مختلفا ومتميزا عن البقية. ذلك الفيض "هو الذي يمنح المفكر الحر الامتياز الخطير في أن يحيا على نحو تجريبي، وأن يلقي بنفسه في أحضان المغامرة"⁶⁷، ليصبح الصراع وما يصاحبه من ألم هو البلورة الرمزية لفعل التمزق عن القطيع باعتبار أن "الألم يتجاري في متاهات التاريخ الحياتي للمرء ويتقافز فيها.. يوقظ النهم للحياة ويتحول إلى عذاب مزمن لأن دلالاته تنفلت من وعي الفرد"⁶⁸.

يتحول الألم من مجرد حالة شعورية إلى سلاح لتغيير كينونة الفرد ونمط وجوده، وما اقتلاع الجسد من تبعيته سوى جزء من اقتلاع لجسدية الألم النفسي الذي يهدم كينونة الفرد وذاتيته، مثل ذلك كمثل "الذين يبترون أعضاءهم.. أو يقطعون إصبعي كي يُسمعوا صوتهم ضدا على اللامبالاة التي تلحقهم"⁶⁹، ليصبح الألم هو الملجأ الذي يتوسله الفرد كدلالة حميمية يحافظ بها على وجوده ويمنحه طابعا يميز علاقته بالعالم وبالوجود، فالألم هو نوع من التمثلات الرمزية لرغبة الفرد في تأكيد وعيه بوجوده، ليتجاوز الألم صورته الميتافيزيقية ويتحرر من بؤس الذات وقلق الكينونة ويصبح مجرد صورة متخيلة في ذهنية المشاهد للوحة أو المفسر لها، فكأن الصورة بمختلف تعبيراتها هنا تصبح قائلة "أعينوني على إعدام الألم الذي يجعلني أتعذب لكن أتركوه لي كي أتمكن من الوجود"⁷⁰.

تتناول مثل هذه الدراسات التأويلية مختلف النظريات السلوكية الفردية والجماعية في ارتباطها بمتطلبات الطبيعة البشرية، وفق التنظيم الاجتماعي التي تخضع له، ووفق التخطيط الاجتماعي الذي يحترم فردية الفرد والذي يتوجب علينا استخدامه في محاولتنا لمعالجة معضلات الإرادة في انتمائنا الوجودي لنسعى إلى "أن نفسر حياتنا الغريزية برمتها بوصفها تهيئة وتفريعا لشكل أساسي واحد من الإرادة، ألا وهي إرادة الاقتدار"⁷¹ التي ترتبط بالإيمان بالقدرة على الفعل بقدر ما ترتبط أيضا بالاقتدار الإلهي الكامن في الفرد "فشأن المرء أن يعود دائما إلى وضوح النور، شأن المرء أن يعيش دوما من جديد ساعته الذهبية وأن ينتصر"⁷² بحثا عن أمل جديد ليس لذاتيته الفردية بل لذاتية تنطلق من الفرد لتحرر المجموعة وتعيد تأسيس كيائها التكاملي. فإصلاح العالم والواقع "لا يأتي بالتأمل بل بالفعل وبالنظرة الجدلية إلى الواقع مع مراعاة قوانين العالم الموضوعي حتى تتحول اليوتوبيا من تأملية مجردة إلى يوتوبيا عينية ذات نزعة اشتراكية"⁷³.

وهنا يعطي سيوران Cioran، فيلسوف الكتابة المأساوية حكمه حول الوجود الانساني "الذي لا يعدو أن يكون سوى ترقيع لما لا يمكن ترقيعه أبدا"⁷⁴ من منطلق بدئي يستهجن ولادة الانسان ذاته "كألم فلسفي مركزي"⁷⁵ فقد أهميته وسط عدمية المجموعة واللاشعور الذي يسيطر عليها معتبرا أن الحياة هي في حد ذاتها غير قابلة

للتحمل، كمقاربة تستلهم الوجدان الإنساني وتكرس لحياة فردية قاحلة مجردة من مشاعرها الإنسانية، لتصبح حالة الجسد هنا حالة بنية تتأرجح بين البقاء والرحيل، بين الرغبة والخوف، بين الألم والأمل نقلها سيوران في قوله "أشعر أنني حر ولكنني أعرف أنني لست كذلك"⁷⁶.

7- خاتمة:

شكلت لوحة الخروج عن القطيع لتوماس كوبرا مادة فنية وفلسفية وسيميولوجية طرحنا من خلالها مظاهر التغيرات البنيوية من منطلق التعامل مع مصطلح القطيع النيتشي كمقاربة وجودية تقدم قراءة نقدية تأويلية للوعي الاجتماعي والايديولوجي ولدور ثقافة القطيع وتأثيرها على صناعة الذات، في مراوحة بين أوهام السيطرة الفكرية والاجتماعية للايديولوجيا وبين حقيقة الواقع السوسيولوجي بمختلف مقارباته الايديولوجية. لنستنتج ضمن هذا الطرح السريالي أهمية الجوهر الإنساني في بعده الفردي والجمعي، وفي بحثه وسط سيرورات الوعي والهوية عن ذاتية الفرد وإنسانيته لندعوه للانطلاق من الواقع وتجاوز سطحيته نحو عمق الأفكار وخفايا العلاقات، من منطلق مركزية الفرد كنقطة عليا تختصر الواقع وتهيمن على بنائيه العلائقية.

كما توصلنا إلى استنتاج أن غياب المعرفة والفهم والتفكير يفقد التفاعلات الجماعية المعنى والقيمة، بطريقة تحرم الفرد من ذاته الحقيقية وتجعله خاضعا تماما لسيطرة الآخرين، فمجرد ذكر كلمة اختلاف يمكن أن يؤدي إلى حالة من الصراع والقلق في المجتمعات التي تحبذ السيطرة من خلال التسطيط ورفض الاجتهاد. ليصل الفرد إلى نوع من الشعور بالنفي والاغتراب وبعدم الانتماء وسط المجموعة وهو ما يحفز الوعي الفردي على التمرد على اللاوعي الجماعي من منطلق أن التعامل مع أزمة الهوية الاجتماعية هو بالأساس بحث في أزمة الهوية الفردية ذاتها باعتبار أن المعرفة والخبرة هي ظواهر فردية نموذجية يبني تكاملها وتضافرها وحدة وكيان المجموعة سواء من خلال التكامل المعرفي أو التعاطف الوجودي.

فالسعي للخروج عن هذه النمطية وتجاوز اللإبداعية يصبح حسب هذه اللوحة منطلقات فردية، فرصة للتححر النسبي من القيود والحتمية الاجتماعية، ليحقق الفرد تميزه واختلافه ورغبته الدفينة في أن يكون ذاتا مبدعة من خلال التفرد والإشباع الذاتي، إلا أن عملية التمزق والاقتلاع والانفصال القسري تحدث نوعا من الألم الذي يتجاوز الألم المادي الجسدي نحو ألم نفسي وجودي، استحضرت اللوحة من خلال تعابير الوجه وتمزقات الجسد والصدى الافتراضي للصرخة، ليصبح الصراع وما يصاحبه من ألم هو البلورة الرمزية لفعل التمزق والخروج عن القطيع.

8. قائمة المراجع:

- أدونيس، الصوفية والسريالية، الطبعة الثالثة، دار الساقى للنشر والتوزيع، بيروت، 2010
- ألان دونو، نظام التفاهة، ترجمة مشاعل عبد العزيز الهاجري، الطبعة الأولى، دار السؤال للنشر، بيروت 2020
- السيد نصر السيد، الحقيقة الرمادية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر 1997
- أمين صالح، السريالية في عيون المرآيا، دار الفراي، لبنان، 2010
- إيريك فروم، الانسان بين المظهر والجوهر، ترجمة سعد زهراني، المجلس الوطني للثقافة والفنون والاداب، الكويت 1989

- ايليكس ميكشيللي، الهوية، ترجمة علي وطفة، دار الوسيم للخدمات الطباعية، دمشق 1993
- بول ريكور، محاضرات الايديولوجيا واليوتوبيا (المجلد 1)، ترجمة فلاح رحيم، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت 1980
- بيير مونتييلو، نيتشه واردة القوة، ترجمة جمال مفرج، الطبعة الأولى، منشورات الاختلاف، الجزائر 2010
- جون ماكوري، الوجودية، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت 1982
- حميد زنار، المعنى والغضب مدخل الى فلسفة سيوران، الطبعة الأولى، منشورات الاختلاف، الجزائر 2009
- دافيد لوبروطون، تجربة الألم، ترجمة فريد الزاهي، الطبعة الأولى، دار توبقال، المغرب 2017
- دلال ملحس استيتية، التغير الاجتماعي والثقافي، دار وائل للنشر والتوزيع، عمان 2008
- عادل حدجامي، فلسفة جيل دولوز عن الوجود والاختلاف، الطبعة الأولى، دار توبقال للنشر، المغرب، 2012
- عطيات أبو السعود، الأمل واليوتوبيا في فلسفة ارنست بلوخ، مؤسسة هنداوي، 2021
- فريدريك نيتشه، انساني مفرط في انسانيته، ترجمة علي مصباح، الطبعة الأولى، منشورات الجمل، بغداد 2014
- فريدريك نيتشه، جينيولوجيا الأخلاق، ترجمة فتحي المسكيني، الطبعة الأولى، منشورات دار سيناترا، المركز الوطني للترجمة، تونس 2010
- فريدريك نيتشه، هكذا تكلم زرادشت، ترجمة علي مصباح، الطبعة الأولى، منشورات الجمل، بغداد 2007
- كارل مانهايم، الايديولوجيا واليوتوبيا مقدمة في سوسيولوجيا المعرفة، ترجمة محمد رجا الديري، الطبعة الأولى، شركة المكتبات الكويتية، الكويت 1980
- مارتن هيدغير، الكينونة والزمان (المجلد 1)، ترجمة فتحي المسكيني، الطبعة الأولى، دار الكتاب الجديد المتحدة، لبنان 2012
- مصطفى شغيدل، حشر مع الناس عيد- قراءة في سياسة القطيع، الطبعة الأولى، دار الورشة الثقافية للنشر والتوزيع، بغداد 2021
- موريس نادو، تاريخ السريالية، ترجمة نتيجة الحلاق، منشورات وزارة الثقافة، دمشق 1992
- ميشال فوكو، الكلمات والاشياء، ترجمة مطاوع صفدي، مركز الانماء القومي، بيروت 1990
- المقالات:
- نشوان علي مهدي، و وادي، علي شناوة، التسطيع الفكري لدى جيل دولوز و تمثلاته في فنون ما بعد الحداثة، مجلة جامعة بابل، المجلد 26 ، العدد 7 ، سنة 2018 (الصفحات 37-76).
- المواقع الالكترونية:
- حمدي العطار. (19 7، 2021). المجلة الالكترونية الزمان. تاريخ الاسترداد 1 7، 2022، من رصد تاريخي لظاهرة حشر مع الناس، الموقع الالكتروني <https://www.azzaman.com/%d8%b1%d8%b5%d8%af-%d8%aa%d8%a7%d8%b1%d9%8a%d8%ae%d9%8a-%d9%84%d8%b8%d8%a7%d9%87%d8%b1%d8%a9-%d8%ad%d8%b4%d8%b1-%d9%85%d8%b9-%d8%a7%d9%84%d9%86%d8%a7%d8%b3/>
- ياسين المصري. (26 8، 2020). الحوار المتمدد العدد 6658. تاريخ الاسترداد 1 7، 2022، من ثقافة القطيع، الموقع <https://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=689703>
- Tomasz Alen Kopera. (2004). Art éclat. من Art éclat. تاريخ الاسترداد 6 7، 2022، deserter: <https://www.artecolat.com/product/deserter/>

9. هوامش البحث:

- ¹ بول ريكور، محاضرات الايديولوجيا واليوتوبيا (المجلد 1)، ترجمة فلاح رحيم، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت 1980، ص52
- ² المرجع نفسه ص47
- ³ المرجع نفسه ص52
- ⁴ جون ماكوري، الوجودية، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت 1982 ص136
- ⁵ مصطفى شغيدل، حشر مع الناس عيد- قراءة في سياسة القطيع، الطبعة الأولى، دار الورشة الثقافية للنشر والتوزيع، بغداد 2021 ص7
- ⁶ جون ماكوري، الوجودية، مرجع سابق ص135
- ⁷ مارتن هيدغر، الكينونة والزمان (المجلد 1)، ترجمة فتحي المسكيني، الطبعة الأولى، دار الكتاب الجديد المتحدة، لبنان 2012 ص241
- ⁸ المرجع نفسه ص235
- ⁹ جون ماكوري، الوجودية، مرجع سابق ص136
- ¹⁰ إيريك فروم، الانسان بين المظهر والجوهر، ترجمة سعد زهراني، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت 1989 ص177
- ¹¹ ياسين المصري. (26 8، 2020). الحوار المتمدن العدد 6658. تاريخ الاسترداد 1 7، 2022، من ثقافة القطيع: <https://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=689703>
- ¹² موريس نادو، تاريخ السريالية، ترجمة نتيجة الحلاق، منشورات وزارة الثقافة، دمشق 1992 ص120
- ¹³ أمين صالح، السريالية في عيون المراه، دار الفرابي، لبنان، 2010 ص16
- ¹⁴ أدونيس، الصوفية والسريالية، الطبعة الثالثة، دار الساق للنشر والتوزيع، بيروت، 2010 ص14
- ¹⁵ عطيات أبو السعود، الأمل واليوتوبيا في فلسفة أرنست بلوخ، مؤسسة هنداوي، 2021 ص331
- ¹⁶ أمين صالح، السريالية في عيون المراه، مرجع سابق ص16
- ¹⁷ جون ماكوري، الوجودية، مرجع سابق ص11
- ¹⁸ المرجع نفسه ص135
- ¹⁹ ألان دونو، نظام التفاهة، ترجمة مشاعل عبد العزيز الهاجري، الطبعة الأولى، دار السؤال للنشر، بيروت 2020 ص70
- ²⁰ المرجع نفسه ص27
- ²¹ نشوان علي مهدي، و وادي، علي شناوة، التسطيع الفكري لدى جيل دولوز و تمثلاته في فنون ما بعد الحداثة، مجلة جامعة بابل، المجلد 26 ، العدد 7 ، سنة 2018 ص40
- ²² عادل حدجامي، فلسفة جيل دولوز عن الوجود والاختلاف، الطبعة الأولى، دار توبقال للنشر، المغرب، 2012 ص197
- ²³ كارل مانهيم، الايديولوجيا واليوتوبيا مقدمة في سوسيولوجيا المعرفة، ترجمة محمد رجا الديري، الطبعة الأولى، شركة المكتبات الكويتية، الكويت 1980 ص121
- ²⁴ فريدريك نيتشه، هكذا تكلم زرادشت، ترجمة علي مصباح، الطبعة الأولى، منشورات الجمل، بغداد 2007 ص225
- ²⁵ حميد زنار، المعنى والغضب مدخل الى فلسفة سيوران، الطبعة الأولى، منشورات الاختلاف، الجزائر 2009 ص11

- ²⁶ المرجع نفسه ، نفس الصفحة
- ²⁷ حميد زنار، المعنى والغضب مدخل الى فلسفة سيوران، مرجع سابق ص12
- ²⁸ ألان دونو، نظام التفاهة، مرجع سابق ص15
- ²⁹ السيد نصر السيد، الحقيقة الرمادية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر 1997 ص55
- ³⁰ بيير مونتبيلو، نيتشه وارادة القوة، ترجمة جمال مفرج، الطبعة الأولى، منشورات الاختلاف، الجزائر 2010 ص92
- ³¹ ياسين المصري. الحوار المتمدن ، من ثقافة القطيع، مرجع سابق
- ³² كارل مانهايم، الايديولوجيا واليوتوبيا ، مرجع سابق ص108
- ³³ حمدي العطار. (19 7, 2021). المجلة الالكترونية الزمان. تاريخ الاسترداد 1 7, 2022، من رصد تاريخي لظاهرة حشر مع الناس:
- <https://www.azzaman.com/%d8%b1%d8%b5%d8%af-%d8%aa%d8%a7%d8%b1%d9%8a%d8%ae%d9%8a-%d9%84%d8%b8%d8%a7%d9%87%d8%b1%d8%a9-%d8%ad%d8%b4%d8%b1-%d9%85%d8%b9-%d8%a7%d9%84%d9%86%d8%a7%d8%b3/>
- ³⁴ فريدريك نيتشه، جينيولوجيا الأخلاق، ترجمة فتحي المسكيني، الطبعة الأولى، منشورات دار سيناترا ، المركز الوطني للترجمة، تونس 2010 ص 9
- ³⁵ المرجع نفسه ص10
- ³⁶ ايليكس ميكشيللي، الهوية، ترجمة علي وطفة، دار الوسيم للخدمات الطباعية، دمشق 1993 ص39
- ³⁷ المرجع نفسه ص 40
- ³⁸ المرجع نفسه ص 134
- ³⁹ دلال ملحس استيتية، التغير الاجتماعي والثقافي، دار وائل للنشر والتوزيع، عمان 2008 ص 53
- ⁴⁰ ألان دونو، نظام التفاهة، مرجع سابق ص 25
- ⁴¹ المرجع نفسه ص80
- ⁴² ميشال فوكو، الكلمات والاشياء، ترجمة مطاوع صفدي، مركز الانماء القومي، بيروت 1990 ص18
- ⁴³ المرجع نفسه ص41
- ⁴⁴ المرجع نفسه ص18
- ⁴⁵ مارتن هيدغير، الكينونة والزمان (المجلد 1)، ترجمة فتحي المسكيني، الطبعة الأولى، دار الكتاب الجديد المتحدة، لبنان 2012 ص250
- ⁴⁶ كارل مانهايم، الايديولوجيا واليوتوبيا ، مرجع سابق ص 105
- ⁴⁷ المرجع نفسه ص 107
- ⁴⁸ بيير مونتبيلو، نيتشه وارادة القوة، مرجع سابق ص86
- ⁴⁹ كارل مانهايم، الايديولوجيا واليوتوبيا ، مرجع سابق ص 107
- ⁵⁰ المرجع نفسه ص124
- ⁵¹ بيير مونتبيلو، نيتشه وارادة القوة، مرجع سابق ص93
- ⁵² موريس نادو، تاريخ السريالية، مرجع سابق ص 109
- ⁵³ المرجع نفسه ص16
- ⁵⁴ ايليكس ميكشيللي، الهوية، مرجع سابق ص154
- ⁵⁵ المرجع نفسه ص147

- ⁵⁶ إيريك فروم، الانسان بين المظهر والجوهر، مرجع سابق ص 41
- ⁵⁷ ايليكس ميكشيللي، الهوية، مرجع سابق ص 155
- ⁵⁸ المرجع نفسه ص 160
- ⁵⁹ عطيات أبوالسعود، الأمل واليوتوبيا في فلسفة ارنست بلوخ، مرجع سابق ص 12
- ⁶⁰ ميشال فوكو، الكلمات والاشياء، مرجع سابق ص 18
- ⁶¹ عطيات أبوالسعود، الأمل واليوتوبيا في فلسفة ارنست بلوخ، مرجع سابق ص 56
- ⁶² المرجع نفسه ص 17
- ⁶³ بيير مونتيبيلو، نيتشه و ارادة القوة، مرجع سابق ص 85
- ⁶⁴ ميشال فوكو، الكلمات والاشياء، مرجع سابق ص 19
- ⁶⁵ المرجع نفسه ص 18
- ⁶⁶ المرجع نفسه ص 19
- ⁶⁷ فريدريك نيتشه، انساني مفرط في انسانيته، ترجمة علي مصباح، الطبعة الأولى، منشورات الجمل، بغداد 2014 ص 16
- ⁶⁸ دافيد لوبروطون، تجربة الألم، ترجمة فريد الزاهي، الطبعة الأولى، دار توبقال، المغرب 2017 ص 95
- ⁶⁹ المرجع نفسه ص 102
- ⁷⁰ المرجع نفسه ص 101-102
- ⁷¹ فريدريك نيتشه، جينيولوجيا الأخلاق، مرجع سابق ص 8
- ⁷² المرجع نفسه ص 66
- ⁷³ عطيات أبوالسعود، الأمل واليوتوبيا في فلسفة ارنست بلوخ، مرجع سابق ص 17
- ⁷⁴ حميد زنار، المعنى والغضب مدخل الى فلسفة سيوران، مرجع سابق ص 19
- ⁷⁵ المرجع نفسه ص 17
- ⁷⁶ المرجع نفسه ص 73